ملامح من اللقاء الحضاري

بين لغة العرب ولغة الفرس

أ.د. سمير محمود الدروبي

عضو مجمع اللغة العربي الأردني، وأستاذ الأدب العربي في كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى / مكة المكرمة

تقديم

تدل المصادر العربية في التاريخ والأدب واللغة على وجود اتصال قوي، وعيش مشترك، وتواصل حضاري، وعلاقات متشابكة، ومصالح مشتركة، بين العرب والفرس قبل الإسلام وبعده.

إن أرضَ العرب الممتدة من الهضبة الإيرانية شرقاً إلى النيل غرباً ، ومن جبال طوروس شمالاً حتى بحر العرب جنوباً، قد جعلت منهم أمة ذات موقع متوسط بين أمم العالم القديم، فهي على تماس ومجاورة وتواصل مع الروم والقبط، والحبشان والفرس والهند، وغيرهم من الأمم والشعوب.

وتشير مصادرُ التراث العربي إلى أن الفرسَ هم أكثرُ الأمم اتصالاً بالعرب، فقد كان الفرس خاضعين لسيطرة أشور التي تُعد عربية، ولكنهم تخلصوا منها، وبدأت قوتهم بالصعود أيام كورش الفارسي نحو ٥٦٠ – ٥٢٥ قبل الميلاد، ثم في أيام داريوس، فاحتلوا العراق، وأجزاء من سوريا.

وغلب الفرس على مواقع في شرق الجزيرة العربية والعراق أيام سابور ذي الأكتاف المتوفى في القرن الرابع الميلادي، كما أنهم ساعدوا سيفَ بن ذي يزن على طرد الحبشان من اليمن، وكانت إمارة المناذرة العربية في الحيرة وأرض العراق تابعاً يدور في فلك الفرس، ولعبة تُحرك بأيديهم إذ جعلوا منها مجهراً ومرصداً، وحاجباً حاجزاً بينهم وبين غارات العرب.

وقد بقيت أرضُ العرب في الشام والعراق رازحة تحت نير احتلالين أعجميين: الفارسي والرومي قرابة الألف عام، حتى جاء الله بالإسلام مع مطلع القرن السابع الميلادي، فتوحد العربُ تحت راية الفتح الإسلامي، وتجلت البطولات العربية في أروع صورها بقيادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ورجال فتحه الغر الميامين، فهزموا الفرس في

القادسية في السنة الخامسة عشرة من الهجرة النبوية، وتوالت بعد ذلك ببضع سنوات انتصارات العرب الفاتحين على الفرس في معركتي نهاوند وجلولاء، وتكون بذلك قد انتهت الدولة الفارسية.

ويدل التاريخ على أن بعضاً من القبائل العربية كانت موالية للفرس قبل الإسلام، وتقوم بحرب إخوانهم العرب إلى جانب الفرس، وهو الأمر الذي مكنهم من فرض هيمنتهم على الأرض العربية قروناً متطاولة، ويستدل على ذلك من الحوار الذي جرى بين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وبين الهرمزان ملك الأهواز الذي أعطى المسلمين عهداً ثم نكث به، ولكنه نزل بعد ذلك صاغراً مستسلماً لأبطال الفتح الإسلامي، فحمل إلى عمر في المدينة المنورة وهو في زيه الملكي الفارسي لابساً حُلل الديباج والذهب، فعندما تأمله أمير المؤمنين ابن الخطاب قال: "أعوذ بالله من النار، وأستعين الله! وقال: الحمدُ لله الذي أذلّ بالإسلام هذا وأشياعه؛ يا معشر المسلمين، تمسكوا بهذا الدين، واهتدوا بهدي نبيكم، ولا تبطرنّكم الدنيا فإنها غرّاره. فقال الوفد: هذا ملك الأهواز، فكلّمه، فقال: لا، حتى لا يبقي عليه من حليته شيء، فرُمي عنه بكل شيء عليه إلا شيئاً يستره، وألبسوه ثوباً صفيقاً، فقال عمر: هيه ياهرمزان! كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله! فقال: يا عمر، إنّا وإيّاكم في الجاهلية كان الله قد خلّى بيننا وبينكم، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلّما كان معكم غلبتمونا. فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا"[1]

١- الطبري، **تاريخ الطبري**: ٤/٨٧-٨٨

إن الحوار السابق بين أمير المؤمنين عمر، وبين الهرمزان يحدد موطن الخلل في العلاقة بين العرب والفرس قبل الإسلام، إذ كان الفرس متحدين وموحدين تحت قيادة واحدة هي الأكسارة بينما ركان العرب متفرقين، تنهشهم الصراعات القبلية، والثارات الجاهلية، فنهضت الأمم وتخلفوا، وقويت وضعفوا، واجتمعت وتبددوا، وُنظر إليهم نظرة دونية على الرغم من بسالتهم ونخوتهم، وشدة بأسهم وأسرهم في الحرب.

وقد تجلت تلك الصورة الشوهاء التي رسمت في أذهان القوى العظمى عن العرب آنذاك إبان مفاوضات سفراء الفاتحين للفرس، ودعوتهم إلى كتاب الله وهَدي نبيه، وقد وصف لنا ذلك المغيرة بن شعبة، داهية العرب وسفيرهم المحنك، ذلك الأمر، حينما لقي قائد الفرس قبيل معركة نِهاوند، يقول المغيرة: " فَدُفِعت وثُهنهت، فقلت: الرسل لا يفعل بهم هذا، فقالوا: إنما أنت كلب، فقلت، معاذ الله! لأنا أشرف في قومي من هذا في قومه؛ فانتهروني، وقالوا: اجلس، فأجلسوني. قال وتُرجم له قوله: إنكم معشر العرب أبعدُ الناس من كل خير، وأطول الناس جوعاً، وأشقى الناس شقاء، وأقذر الناس قذراً، وأبعده داراً؛ ما منعني أن آمر هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموكم بالنشّاب إلا تنجّساً لجيفكم؛ فإنكم أرجاس؛ فإن تذهبوا نُخَلّ عنكم، وإن تأتُوا نِركم مصارعكم" [٢].

فالنص السابق وغيره من النصوص الواردة في كتب التاريخ والفتوح، تكشف بجلاء عن موقف الفرس من العرب قبل الإسلام، فالعرب عندهم مجرد قوم جياع، وأناس غلب عليهم البؤس والشقاء، وهم عندهم أقرب إلى الحيوان منهم إلى الإنسان.

٢- **المصدر السابق**: ٤/١١٨.

أما العلاقة بين اللغتين العربية والفارسية فإنها قد مرت في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى، وتعود إلى قبل الإسلام عندما كانت الهيمنةُ للفرس على أجزاء من الأراضي العربية، وكان احتكاكُ العربِ بهم عسكرياً وحضارياً، واجتماعياً وأدبياً، وتمكن الفرسُ في هذه المرحلة من الاستعلاء على العرب وضرب بعضهم ببعض.

وتشير بعض المصادر إلى وجود ثقافي وأدبي عربي في بلاط الأكاسرة، فقد اتخذوا من بعض العرب تراجمة كعدي بن زيد العبادي[٣] الذي كان ترجماناً لكسرى من العربية إلى الفارسية. وكذلك لَقِيط بن يَعُمر الإيادي[٤].

وقد لاحظ فقهاء اللغة العربية ظاهرة تسرب بعض الألفاظ الفارسية إلى لغة العرب قبل الإسلام وبعده، وعقد الثعالبي فصلاً بعنوان: " في سياقة أسماء تفرد بها الفُرس دون العرب ، فاضطّرت العربُ إلى تعريبها أو تركها كما هي، فمنها الأواني: الكوز، الجرة، الإبريق، الطّشت، الطّبق، القَصْعَة، السُّكرَّجة. ومن الملابس: السَّمُّور، الدَّلق، الخَزُّ، الدّيباج، السُّنْدُس. ومن الجواهر: الياقوت، البلُّور. ومن ألوان الطبيخ: السِّكبَاج، ومن الحلاوي: الفالُوذج، اللّوْزينج، الجُلّاب. ومن الأفاوية: الفُلْفُل، الكَرَويَّا، القرفة.... [٥] إلخ.

وقد لاحظ الجاحظ آثار تأثير الفرس على لغة العرب عند حلول بعض الجاليات الفارسية في المدن العربية في الجاهلية، يقول: "ألا ترى أن أهل المدينة لّما نزل فيهم ناسٌ من الفرس في قديم الدهر عَلِقُوا بألفاظٍ من ألفاظهم، ولذلك يسمون البِطِّيخ الخِرْبز، ويسمون

٣- انظر: **الأغاني**: ٢/١٠١-١٠٢

٤- انظر: الأسد، **مصادر الشعر الجاهلي**: ٥٥

٥- الثعالبي، **فقه اللغة**: ٣١٦ ؛ السيوطي المزهر: ١/٢٧٥

السميط الرزدق، ويسمون المَصُوص المَز ويسمون الشطرنج الاشترنج[٦]... وفي غير ذلك من الأسماء. وكذلك أهل الكوفة؛ فإنهم يُسمُّون المِسحاة بَالْ، وبَالْ بالفارسية".

وقد وجدت جاليات فارسية في جزيرة العرب قبل الإسلام، إذ تسلط الفرس على البحرين، وبنوا حسن المشقر، وقد روى الطبري خبر بناء المشقر قائلاً: "وكان الذي بنى المشقر رجل من أساوره كسرى، يقال له بسك بن ماهبوذ، كان كسرى وجهه لبنائه، فلما ابتدأ قيل له: إن هؤلاء الفعلة لا يقيمون بهذا الموضع إلا أن تكون معهم نساء، فإن فعلت ذلك بهم تم بناؤك، وأقاموا عليه حتى يفرغوا منه، فنقل إليهم الفواجر من ناحية السواد والأهواز، وحملت إليهم روايا الخمر من أرض فارس في البحر، فتناكحوا وتوالدوا، فكانوا جُلُّ أهل مدينة هجر، وتكلّم القوم بالعربية..." [٧].

وتمام الخبر عند الطبري " أن المُكَعبر أدخل بني تميم حصن المشقر، فقتل رجالهم، واستبقى غلمانهم، وحملهم في السفن إلى بلاد فارس، فخصى الفرس منهم بشراً، وبعدما فتحت اصطخر رجع عدة منهم أحدهم خصى والآخر خياط"[٨].

وقد لفتت ظاهر المصاهرات والمزاوجات بين العرب والفرس قبل الإسلام نظر المدائني الذي وجد في أخبارها ما دعاه لتأليف كتاب فيمن تزوج مجوسية[٩].

إن جمهرة الأخبار الواردة عن اتصال العرب بالفرس قبل الإسلام وبعده، وما تبع ذلك من علاقات حربية أو حضارية أو اجتماعية أو لغوية، قد دونت بعد الإسلام، وبعد زوال دولة بني أمية، وهي الدولة العربية الأعرابية، ومجيء دولة بني العباس التي غلب فيها العنصر الفارسي على الجيش والإدارة والأدب والوراقة، وهو الأمر الذي مهد لبروز حركة شعوبية

٦- الجاحظ، **البيان والتبيين**: ١/١٩

٧- الطبري، **تاريخ الأمم والملوك** : ١/٤٦٠ شاملة.

٨- **المصدر السابق**: ١/١٤٩٠٤٦٠.

٩- انظر: النديم، **الفهرست** :١/١٤٩.

عنيفة، حاولت اجتثاثَ كلِّ فضلٍ أو محمدةٍ منسوبة للعرب، وسعت لتوسيع فضائلِ الفرس في نفوس الناس، فادعت لهم جلائل الأعمال والصنائع، ونفت عنهم كل مذمة ونقص وشنار، وعيب ودنس وعار.

وتأسيساً على ما سلف ذكره؛ فإن مثل هذه المرويات يجب أن تمحص تمحيصاً دقيقاً، فنتوقف عند أكثرها، ولا نأخذ منها إلا ما صح إسناده، وصدق خبره.

ولكن يبقى تأثير الفرس على عرب الحيرة متواتراً في كثير من المصادر العربية القديمة من ناحية، كما حاربت بعض القبائل العربية – مثل: تغلب، وإياد، وطيء، والنمربن قاسط وغيرها – مع الفرس ضد العرب في حرب "ذي قار" في مطلع القرن السابع الميلادي تقريباً من ناحية أخرى[١٠].

أما المرحلة الثانية في العلاقة بين اللغة العربية والفارسية؛ فإنها ترجع إلى أيام الفتح الإسلامي عندما استرد المسلمون أرض العراق، وهي أرض أجدادهم في بابل وأشور من دولة الفرس التي جثمت على أرض العراق وغيرها من الأرض العربية مدة نيفت على الألف عام.

ومزقت جيوش الفتح في هذه المرحلة دولة كسرى في العقدين الثاني والثالث من القرن الهجري الأول، استجابة لدعوة المصطفى – عليه السلام – الذي دعا كسرى إلى الإسلام، فكان رده تمزيق كتاب المصطفى الذي دعا الله عزّ وجل أن يمزق ملكه.

ثم وجه الفاروق جيش الصحابة والتابعين بقيادة سعد بن أبي وقاص إلى أرض العراق داعياً الفرس إلى نور الإسلام وهديه، ونجحت جيوش الفتح في اقتلاع جيوش كسرى من

١٠- انظر: حجاب، **مظاهر الشعوبية في الأدب العربي**: ٩٨.

أرض العراق وفارس، ووصلت إلى ما بعدها من أرض الأعاجم، داعيةً إلى عبادة الله، ومحطمة أصنامَ الحجر والبشر، ومقتلعة شرور الطواغيت الذين قدسوا النار، واستباحوا فروج المحارم، ونصّبوا من أنفسهم أرباباً تذل له أرقاب البشر وتخضع.

وقد تزامنت عَمليةُ تعريب أهل الأرض المفتوحة مع الفتوحات الإسلامية، وكانت خطة التعريب غاية في التخطيط والذكاء، وهي لا تقل في قيمتها الحضارية عن الانتصارات العسكرية، إذ أحل العرب الفاتحون لغتهم محل اللغات الرسمية في بلاد فارس والشام، ومصر وأفريقيا بقوتي الدين والدولة، ولكنهم قرنوا إلى لغتهم في بداية الأمر لغات أهل البلاد المفتوحة، فأصبحت أرض الفتح ثنائية اللغة في الأمور المالية والإدارية: العربية والفارسية في أرض فارس، وكانت العربية واليونانية في بلاد الشام ومصر، وسار الأمر على هذا المنوال قرابة جيلين متتاليين في الأقل.

ومُصّرت الأمصار في السنوات الأولى للفتوح، واختط الفاروق البصرة والكوفة، وفتحت أبواب تعليم اللغة العربية في الأمصار للأعاجم، وبنيت الجوامع التي أصبحت معاهد للعلم في الأرض المفتوحة، ودخل كثير من أهل البلاد المفتوحة في الإسلام طواعية واختياراً، واستجابة لداعية الحق ونور الرسالة، وكان سلمان الفارسي داعية الفرس إلى الإسلام.

وانتسب كثير من الأعاجم إلى العرب بالولاء، وكثر أبناء السراري، وظهرت أجيال من المولدين والبلديين نتيجة للتزاوج بين العرب والفرس وغيرهم من الشعوب، واستمر الأمر إلى عهد عبد الملك بن مروان (حكم ٦٥-٨٦ هـ /٦٨٤ – ٧٠٥م) وإلى زمن عامله على العراق، ذلك الوالي العبقري الحجاج بن يوسف الثقفي الذي وضع سياسة عبد الملك في إتمام حركة تعريب الدواوين المالية موضع التطبيق العملي.

يقول الجهشياري واصفاً ذلك التحول في إدارة الأمور المالية من الفارسية إلى العربية في بداية عهد الحجاج، وما نهد إليه من إنجاز ذلك المشروع: "ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان:

أحدُهما بالعربية، لإحصاء الناس وأعطياتهم، وهذا الذي كان عُمر [بن الخطاب] قد رسمه؛ والآخر لوجُوه الأموال، بالفارسية. وكان بالشام مثلُ ذلك، أحدهما بالرُّومية، والآخر بالعربية. فجرى الأمر على ذلك إلى أيام عبد الملك بن مروان.

فلّما قُلّد الحجاج العِراق، كان يكتب له صالح بن عبد الرحمن ويكنى أبا الوليد. وكان يتقلّد ديوان الفارسية إذ ذاك زاذان فرّوخ، فخلفه عليه صالحُ بن عبد الرحمن، فخفّ على قلب الحجاج، وخُص به، فقال لزاذان فرّوخ: إني قد خففت على قلب الحجاج، ولستُ آمنُ أن أزيلَك عن مَحلّك لتقديمه إيّاي، وأنت رئيسي؛ فقال زاذان فرّوخ: لا تَفعل، فإنّه أحوجُ إليّ مني إليه، قال: فكيف ذلك؟ قال: لا يَجدُ من يكفيه الحساب؛ فقال صالح: إني لو شئتُ حَوّلتُه بالعربية، قال: فحّول منه سطراً؛ فحّول منه شيئاً كثيراً. فقال زاذان فروخ لأصحابه: التمسوا مسكناً غير هذا، وأمر الحجاج صالحاً بنقل الدّواوين إلى العربيّة في سنة ثمان وسبعين" (١١).

وبعد الانتهاء من تعريب الدواوين المالية في العراق، ونجاح العقل العربي والقيادة العربية المخلصة في إنجاز هذا العمل الجليل، انتقلت حركة التعريب إلى خرسان في أيام هشام بن عبد الملك (حكم ١٠٥-١٢٥هـ/ ٧٢٣ – ٧٤٢م)، ويبدو أن تعريب الدواوين في خرسان لم يكن سهلاً كما هو الحال في العراق، بل لقي ممانعة وعناداً، وتعطيلاً وصداً من الفرس، يقول الجهشياري:

"وكان أكثر كُتاب خرسان إذ ذاك مجوس، وكانت الحُسبانات بالفارسيّة؛ فكتب يوسف بن عمر، وكان يتقلد العراق في سنة أربع وعشرين و مئة، إلى نصر بن سيار كتاباً

١١- الجهشياري، **الوزراء والكتاب**:٣٨.

أنفذه مع رجل يُعرف بسليمان الطّيار، يأمره ألا يستعين بأحد من أهل الشِّرك في أعماله وكتابته [١٢].

لقد استجاب نصر بن سيار – وهو أحد الأبطال الذين دافعوا عن وحدة العرب وبقائهم في خرسان، وقاسى في ذلك الحروب الأهوال – لتوجه الدولة في إتمام تعريب دواوينها، فندب لذلك إسحاق بن طليق الكاتب، وقد وصف الجهشياري ذلك بقوله:

" وكان أول من نقل الكتابة من الفارسيّة إلى العربيّة بخُرسان إسحاقُ بن طُليق الكاتب، رجل من بني نهشل، كان مع نَصر بن سيار، فخُصّ به" [١٣].

إن قرارات رجالات بني أمية الصارمة، وأوامرهم الواضحة بتعريب ما تبقى من دواوين مالية في أرض دولتهم، قابله الفرس بالسخط، ورفع رايات الحداد، وقالوا: إن لُغتنا قد ذهبت إلى الأبد، لذلك فإن العقلية الفارسية المعروفة بكيدها ومكرها وطول نفسها، وعملها في الخفاء وتحت الأرض، قد قابلت هذا التحدي الماثل في إتمام تعريب دواوين الدولة، وعدّوا ذلك الإجراء خطراً حقيقياً يخشى منه إبادة لغة فارس ومحوها، والقضاء على تراثها، وقد تمثل ردّ فعلهم في الآتي:

أ- ترجمةُ تُراثِ الفرس السياسي والتاريخي والديني والأدبي إلى اللغة العربية خوفاً عليه من المحو و الأندثار والزوال:

فقد رأى الفرس إهمالَ تراثهم، وعدمَ معرفةِ الناس بخطه، وعدمَ وجودِ دولةٍ تحافظ عليه، قد يؤدي إلى انحلاله ودروسه على ممر الزمن، ولذا فإن ترجمته وتحويله إلى لغة العرب الصاعدة التي أصبحت لغة الدين والعلم والأدب، والفكر، والدولة والإدارة، يؤدي إلى إقبال الناس؛

١٢- **المصدر السابق**:٦٧.

١٣- **المصدر السابق**:٦٧.

عرباً وفرساً على درسه وتناقله، مما يمكنه من الخلود على وجه الزمن، ويصبح أدب الفرس أدباً فارسياً، ولكنه يقرأ بلغة العرب.

إن أول ما بدأ الفرس ترجمتَه إلى لسان العرب هو تَواريخُ ملوكهم التي نقلت إلى لغة العرب في مطلع القرن الهجري الثاني تقريباً، يقول المسعودي: "رأيت بمدينة اصطخر من أرض فارس في سنة ٣٠٣ هـ ،وعند بعض أهل البيوتات المشرفة من الفرس، كتاباً عظيماً يشتمل على علوم كثيرة من علومهم، وأخبار ملوكهم، وأبنيتهم وسياساتهم، لم أجدها في شيء من كتب الفرس "كخداي ناماه" و "آئين ناماه" و "كهناماه" وغيرها، مُصور فيه ملوك فارس من آل ساسان سبعة وعشرون ملكاً ... وأنهم ملكوا الأرض أربعمائة سنة... وأنهم كانوا إذا مات ملك من ملوكهم صوروه على هيئته ورفعوه إلى الخزائن كي لا يخفى على الحي منهم صِفَةُ الميت، وصورة كلِّ ملك كان في حرب قائماً ... وما حدث في ملكه من الكوائن العظيمة والأحداث الجلية، وكان تاريخُ هذا الكتاب أنه كتب مما وجد في خزائن ملوك فارس للنصف من جمادى الآخرة سنة ١١٣ هـ، ونُقل لهشام بن عبد الملك بن مروان من الفارسية إلى العربية" (١٤).

إن نص المسعودي السالف ذكره، يوحي بوجود حركة ترجمة نشطة من الفارسية إلى العربية في نهاية العصر الأموي، ولا سيما في موضوع الإدارة والسياسة، وأصول الحكم التي كانت سائدة في الدولة الفارسية، التي تمكنت بفضل براعتها في السياسة أن تعمر قروناً متطاولة، يبدو أن دولة بني أمية قد رأت في ترجمة هذا الميراث الفارسي في السياسة والإدارة مصدراً مفيداً لها في إدارة دولتها المترامية الأطراف التي أصبحت على مشارف باريس غرباً والهند شرقاً.

١٤- المسعودي، **التنبية والأشراف**: ١٠٨-١٠٩.

ومن كبار النقلة الذين جردوا أقلامهم، وشحذوا عقولهم لتحويل التراث التاريخي والسياسي والأخلاقي والأدبي والديني الفارسي إلى لغة العرب: عبد الله ابن المقفع (ت١٤٢هـ / ٧٥٩م) الذي كان من موظفي الدواوين في الدولة الأموية، ثم التحق بخدمة العباسيين بعد انقلابهم المشئوم على دولة العرب دولة بني أمية في سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م، وانتهى أمره بالقتل متهماً بالزندقة.

فقد وُصف ابن المقفع بأنه " كان أحدَ النقلةِ من اللسان الفارسي إلى العربي، مضطلعاً باللغتين فصيحاً بهما، وقد نقل عِدةَ كُتبٍ من كُتبِ الفرس منها كتاب خدينامه في السير، كتابُ آيين نامه، كِتابُ كليلة ودمنة، كِتاب مَزْدَك، كِتابُ التاج في سيرة أنوشروان..." [١٥].

ونقل جَبَلةُ بن سالم: "رستم وإسفنديار" ، و "التاج"، و "دارا والصنم".

إن شرط الترجمان الكفي كانت متوافرة في ابن المقفع من حيث الاضطلاع باللغتين: العربية والفارسية، ولكن يبدو لنا مما ذكر من أخباره أنه كان مفتقراً للأمانة العلمية فيما حوله من الفارسية إلى العربية، وتشير بعض المصادر إلى أنه قد غيَّر وبدّل، وقدم أخر، وأضاف وحذف فيما ترجمه من أعمال خدمة لعصبيّة الفارسية من جانب، وحفاظاً على العقائد الدينية الفارسية: الزرادشتية والمانوية والمزدكية، وهو ما أطلق عليه العرب اسم "الزندقة" الفارسية من جانب آخر.

وقد كشف لنا البِيروني الذي اطلع على كتاب "كليلة ودمنة" في أصله الهندي عن تلاعب ابن المقفع وتلفيقه في ترجمته لواحدٍ من أشهر أعماله وأكثرها خلوداً، وهو المجموعة القصصية الموسومة بـ: "كليلة ودمنة" يقول البيروني: "...وبُودّي إن كُنتُ أتمكنُ من ترجمة كتاب "بنج تنتر"، وهو المعروف عندنا بكتاب "كليلة ودمنة"، فإنه ترددَ بين الفارسية والهندية، ثم العربية والفارسية على ألسنة قومٍ لا يؤمن تغييرهم إيّاه كعبد الله بن المقفع في

١٥- النديم، **الفهرست**: ١٧٢/١.

زيادته باب "برزويه" فيه، قاصداً تشكيك ضعفى العقائد في الدين وكَسرهم للدعوة إلى مذهب "المنانية" ، وإذا كان متهماً فيما زاد، لم يخلُ عن مثله فيما نقل" [١٦].

ويَعضدُ قولَ البيروني السابق ما نص عليه الجاحظ بأن كُتّاب الفرس وتراجمتَهم كانوا يلجئون إلى وضع الرسائل بالعربية، و نحلها للفرس تدليلاً على فضلهم وأدبهم، يقول: "ونحن لا نستطيع أن نعلم أنّ الرسائل التي بأيدي الناس للفرس، أنها صحيحة غيرُ مصنوعة، وقديمة غيرُ مولدة، إذ كان مِثلُ ابن المقفعِ، وسهل بن هارون، وأبي عبيد الله، وعبد الحميد وغيلان، يستطيعون أن يولدوا مثلَ تلك الرسائل، ويصفوا مثلَ تلك السِّير"[١٧].

وفوق ذلك، فإنه يبدو لنا أن تأثير الفرس في اختيار النصوص المترجمة إلى اللغة العربية كان كبيراً، ويستدل على ذلك بما ذُكر عن سهل بن هارون، يقول الجاحظ: " وقال سهل بن هارون يوماً، وهو عند المأمون: من أصناف العلم مالا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا فيه، وقد يُرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال!"[١٨].

والمعروف أن سهل بن هارون كان واحداً من كبار الكتاب والخطباء في العصر العباسي، وكان رئيساً لبيت الحكمة وهي المؤسسة المكلفة باختيار الكتب الأعجمية وترجمتها، إلا إن الرجل كان فارسياً شعوبياً، وكان شديد التعصب للفرس على العرب، لذا فإن قوله السابق يدل بشكل قاطع على توجيه حركة الترجمة، والتخطيط لها بما يضمن تعريب التراث الفارسي؛ أدباً وتاريخاً، وإدارة وسيراً، وأياماً وأخباراً، في حين أن الترجمة في موضوعات الأدب والتاريخ وسير الملوك كانت مضيقة أو ممنوعة على التراث اليوناني وغيره من تراث الأمم الأخرى التي نهد العرب إلى ترجمة آثارها وكنوزها العلمية والأدبية، وهو الأمر الذي أثار تساؤل أحد غلاة المستشرقين (ديبور) عن السبب في عدم ترجمة العرب لتاريخ يونان وأدبهم،

١٦- البيروني، في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مذدولة٢٣ .

١٧- الجاحظ، البيان والتبيين: ٢٩/٣.

١٨- المصدر السابق: ٣٧٣/٣ .

وخلص من ذلك إلى قصور العقلية العربية في ترجمة أنفس ما أبدعه اليونان، مما حدا بكاتب هذه السطور إلى الردّ على ذلك المستشرق في مقالة علمية سبق نشرها. [١٩].

ولكني الآن أضيف إلى ذلك الردّ أن سيطرة الفرس على بيت الحكمة سيطرة شبه تامة، وبخاصة بعد وفاة الرشيد الراعي الأكبر لحركة الترجمة، وبعد هزيمة الخليفة الأمين الذي يمثل التيار العربي في دولة بني العباسي، ثم انتصار التيار الفارسي الذي يمثله المأمون، قد أدى إلى تحكم سهل بن هارون وأضرابه من الشعوبيين الفرس فيما يُختار من نصوص الترجمة من ناحية، كما أدت إلى تقديم تراث فارس وتحبيذه على تراث الأمم الأخرى من ناحية أخرى.

ب- **تأجيج نيران الحركة الشعوبية التي كانت شنت حرباً شعواء، وتشويهاً قبيحاً لكل ما هو عربي:**

فقد طعن الفرس في أنساب العرب وأحسابهم، وعابوا أخلاقهم، وزيَهم، وحياتهم في الصحراء، وطعامهم، وفروسيتهم، وأدواتهم في الحرب، ونعتوهم بأنهم رعاةُ إبلٍ وغنمٍ، وسخروا من كرمهم وخطابتهم.

وفوق ذلك، فإن الشعوبيين قد تجرؤوا على مهاجمة اللغة العربية، وفضلوا لغتهم الفارسية عليها، وذلك ما فعله حمزة الإصفهاني المتوفى في منتصف القرن الرابع الهجري تقريباً في كتابه "الخصائص والموازنة بين العربية والفارسية"[٢٠].

وأشار الجاحظ قبل حمزة الإصفهاني بحوالي قرنٍ من الزمان إلى موقف الشعوبيين الفرس من لغة العرب وأصواتِها، يقول على لسان أحد الشعوبيين المتطاولين على لسان العرب وكلامهم:

١٩- انظر: سمير الدروبي، الترجمة والتعريب بين العصرين العباسي والمملوكي: ٣٩-٤٢.

٢٠- انظر الأصفهاني، التنبية على حدوث التصحيف: ١٧

"ولطول اعتيادكم لمخاطبة الإبل، جفا كلامُكم، وغلُظت مَخارجُ أصواتِكم، حتى كما أنّكم إذا كلّمتم الجُلساءَ إنما تخاطبونَ الصُّمَّان"[٢١].

ويبدو أ، حقد الشعوبية الفارسية على العربية قد تنامى على مر الزمن، إذ أشار الإمام أبو القاسم الزمخشري (ت ٥٣٨هـ/١١٤٣م) إلى شدة التيار الشعوبي المناهض للعربية والحاقد عليها، يقول في مقدمة كتابه "المفصل في علم العربية" : "اللهَ أحمدُ أن جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية، وأبى لي أن أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز ، وعصمني من مذهبهم الذي لم يُجد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين، والمشق بأسنة الطاعنين، وإلى أفضل السابقين والمصلين، محمد المحفوف من بني عدنان بجماجمها وأرحائها النازل من قريش في سرة بطحائها، المبعوث إلى الأسود والأحمر، بالكتاب العربي المنور ، وأدعوه على أهل الشقاق لهم والعدوان. ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها، ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها، حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه في عجم خلقه، ولكن في عربه، لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج، وزيغاً عن سواء المنهج"[٢٢]

لم يقتصر الأمر على حملاتهم على العربية، بل تعداه إلى الإساءة إلى الكتاب الكريم، فقد قيل: إن ابن المقفع عارض القرآن، مما حدا بالقاسم بن إبراهيم إلى تأليف كتابه "الرّد على الزنديق اللعين ابن المقفع" وقد نشره المستشرق الإيطالي جويدي باللغتين العربية والإيطالية سنة ١٩٢٧م[٢٣].

وما كتبه أحمدُ بنُ يوسف وزيرُ المأمون يُمكن أن يُعدَّ تهكماً بالقرآن الكريم، والنبي الكريم وذلك فيما كتبه إلى بني سعيد بن سلم: "لولا أن الله خَتَم نبوتَه بمحمد، وكُتبَه

٢١- الجاحظ، البيان والتبيين: ١٤/٣.

٢٢- الزمخشري، المفصل في علم العربية: ٢-٣.

٢٣- انظر محمد نبيه حجاب: مظاهر الشعوبية في الأدب العربي: ٤٠٢.

بالقرآن، لأرسلَ عليهم نبي نقمة، وأنزل فيهم قُرآنَ غدر، وما عسيت أن أقولَ في قومٍ محاسنهم مساوئ السفل، ومساوئهم فضائحُ الأمم، وألسنتهم مَعقولة بالعِميّ، وأيديهم مَغلولة بالبخل"[٢٤].

فالقرآن لا ينعت بالغدر، بل هو نور هداية ومعجزة خالدة لإنقاذ البشر، والنبي عليه السلام – بل أي نبي هو رسول من الله يهدي به البشر، ويوضح لهم طريق الصلاح والفلاح، أما وجد هذا الشعوبي الموتور أوصافاً لكتاب الله ونبيه غير الغدر والنقمة!!

ولا يخفي على القارئ للتراث العربي في أن ما ألفه ابن الريوندي اليهودي الفارسي من كتب في الطعن على القرآن والرد عليه.

وما ذكره صاحب الأغاني عن بشار بن برد وهو من رؤوس الزنادقة عندما سمع جارية تغني بأبيات من شعره، فطرب وقال: "هي والله أحسنُ من سورة الحشر"[٢٥]. يعد من قبيل تطاول زنادقة الفرس على القرآن الكريم.

إن الموقف الشعوبي من القرآن العظيم لم يقتصر على قدمائهم بل تعداه إلى عصرنا، فقد ذكرت نظلة أحمد الجبوري المدرسة في كلية الشريعة في جامعة بغداد كلاماً خطيراً عن موقف مؤسس دولة الملالي قبل بضعة عقود، تقول الجبوري: "فقد سمح بإعادة طبع عدد من المصاحف المحرفة والمتضمنة إضافات على الآيات والسور القرآنية، وأباح لنفسه وضع صورته على هذه المصاحف، وكأنها قرآنه المنزل عليه من السماء، حتى أنه بعث بها إلى بعض الأقطار الإسلامية، ليثير فيها الفتن والنزاعات والخلافات ، ولم يكتف بهذا القدر من

٢٤- الحصري، زهر الآداب: ٢/٤٠ (ط الرحمانية).

٢٥- الإصفهاني، الأغاني:٣/٢١١.

التحريف للمصحف الشريف، بل ذهب أبعد من ذلك إذ سمح لليهود بنزع الآيات القرآنية التي تشير إلى النذير والتذكير لبني إسرائيل من القرآن"[٢٦]

قلت: لم أقف على واحدٍ من هذه المصاحف التي ذكرتها الجبوري، والعهده عليها فيما ترويه، وربما كان ذلك الفعل الشنيع – إن صحت روايته – غير مستبعد عن قوم ينشرون بين الناس موسوعة ضخمة تسمى "بحرار الأنوار" نيفت على مائة مجلد، وهي في الحقيقة بحرار الأشرار والظلمات، والترهات والإساءات، والمخازي والموبقات، لما اشتملت عليه من مطاعن وافتراءات بحق صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وجعل مؤلفها المجلسي – أجلسه الله في ضحضاح من النار، وأقعده في الجحيم مع الأشرار – مجلداً في الطعن على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وآخر في أبي بكر الصديق وابنته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم أجمعين.

وما يفعله أتباع المجلسي من نشر هذه الموسوعات والكتب، وعرضها بأرخص الأثمان وأبخسها، أو عرضها مجاناً لأخذها، والتأنق في طبعها، ثم تجليدها تجليداً فاخراً، لا يختلف في جوهره وغرضه عما كان يصنعه الزنادقة والشعوبيون في العصر العباسي، إذ كانت كتبهم متداولة على نطاق واسع بين المجوس الذين سخت أنفسهم بالإنفاق على نسخها، وتجويد ورقها، وإبرازها للقراء بأقشب ثوب وأجمل حلة، وقد استنكر الجاحظ – على حبه للكتب ونشرها – عملهم في كتبهم بقوله: "وددت لو أن الزنادقة لم يكونوا حُرصاءَ على المغالاة بالورق النقيِّ الأبيض، وعلى تخيّر الحبر الأسود المشرق البرَّاق، وعلى استجادة الخطِّ، والإرغاب لمن يخط، فإنّني لم أر كورق كتبهم ورقاً، ولا كالخطوط التي فيها خطّاً"[٢٧].

جـ- هدم الوجود العربي في الجيش العباسي، وإحلال الجند الفارسي محل العربي:

٢٦- نظلة أحمد نائل الجبوري: "الفرق والحركات الشعوبية: المنطلقات والأهداف والوسائل" ضمن كتاب الشعوبية ودورها التخريبي في الفكر العربي الإسلامي، مطبعة الرشاد، بغداد، ١٤٠٨ – ١٩٨٨م، ص١٢٧.

٢٧- الجاحظ، الحيوان: ٥٥/١.

لقد تأسس جيش الخلافة في بداية الفتوح من العرب، وكانت اللغة العربية والبيئة والأخلاق إضافة إلى الإسلام عاملاً موحداً للعرب، وقد لاحظ ذلك الجاحظ، فقال: "إنّ العرب لما كانت واحدة فاستووْا في التّربة وفي اللغة، والشمائل والهمّة، وفي الأنف والحميَّة، وفي الأخلاق والسَّجية، فسُبكوا سَبكاً واحداً، وأُفرِغوا إفراغاً واحداً، وكان القالبُ واحداً، تشابهت الأجزاء، وتناسبت الأخلاط"[٢٨].

واللافت للنظر أن عوامل التوحيد السابقة لم تتمكن من جمعهم تحت راية واحدة في إطار دولة منظمة كحال الفرس والروم، حتى جاء الله بالإسلام، فوحدهم عقدياً، وألّف بين قلوبهم المتنافرة تحت رايته الداعية إلى الدعوة إلى الله، وجعل مهم أمة واحدة ذات هوية ورسالة.

ولما آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب بعهد من أبي بكر الصديق في السنة الثالثة عشرة من الهجرة النبوية، أسس ديوان العطاء للعرب، وفرض فيه راتباً أو جراية لكل مولود منهم في الإسلام، ليكونوا جيشاً عربياً جراراً مقاتلاً تحت رايات الإسلام، لنشر دين الله، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله عز وجل.

ثم بنى ابن الخطاب لهذا الجند العربي المجاهد الأَمصار: البصرة، والكوفة، والفسطاط وغيرها، وحشد فيها العرب عدنانها وقحطانها، وأرسل لها المعلمين من صحابة رسول الله ، فصارت مراكزَ للتعريب والتعليم، ومعسكراتٍ لجيوش الفتح، وكانت إنجازاتهم عظيمةً، فنقلوا الإسلام والعربية إلى أرض الفتوحات حتى وصلت دعوتهم ولغتهم بعد عشرة أعوام من خلافة ابن الخطاب إلى العراق وفارس، وأرمينية وبلاد الترك، والشام ومصر.

٢٨- الجاحظ، رسائل الجاحظ: ١/١١.

وعندما شجرت الخلافات بين العرب، وكثرت ثوراتهم الباطلة على دولة بني أمية، انضوى عدد كبير من الموالي الفرس تحت رايات الخارجين عن الدولة، والمتمردين على الخلافة الشرعية.

ولما خرج المختار الثقفي سنة ٦٦ هـ / ٦٨٥م انضمت إليه الألوف من الفرس، فقال بعضهم لإبراهيم الأشتر قائد جيش المختار: "إنهم لم يسمعوا كلاماً عربياً في جيشه إلا عندما انتهوا إليه، وكيف يرجو النَّصَر ومعظمُ جَيشه من الأعاجم، فكان جواب ابن الأشتر وقد رأى مُقاتلَة الشام: "وما قوم أشدَ بصيرةً في قتال أهل الشام من هؤلاء الذين تراهم معي —كذا — و إنما هم أولاد الأساورة من أهل فارس والمرازبة"[٢٩].

أما موقف العرب من هذا التمرد الفارسي الذي يقاتل تحت راية المختار، فقد جاء على لسان رَبيعةُ بن مُخارق الذي قال مخاطباً عسكرَه من أهل الشام: "ياأهل الشام: إنكم إنما تقاتلون العبيدَ الأُباقَ، وقوماً قد تركوا الإسلام، وخرجوا منه ليست لهم بقية، ولا ينطقون بالعربية"[٣٠].

وتمكنت دَولةُ بني أمية من هزيمة الخارجين، وقمع المتمردين لوجود جيش عربي مُوحد في لغته وأنفته وحميته، ثم تتابعت حركة التعريب في عملها الدائب، وإنجازاتها المتتالية، وكانت قرارتها حاسمة، وذلك عندما رأى عبد الملك بن مروان، ووالية على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي، أن الفرس رفعوا السلاح في وجه الخلافة الشرعية، وأن الأعاجم مازالوا يهددون العربية في دولتها وأرضها، كما بينا ذلك سابقاً.

لقد انطلقت الدعوة العباسية على يد محمد بن علي من قرية الحميمة في جنوب الأردن سنة ١٠٠ هـ/٧١٨، وجعل من الكوفة مركزاً لاتصالات دعاته وأشياعه، وخص

٢٩- الدينوري، الأخبار الطوال: ٢٥٨ ، ٢٦٧

٣٠- الطبري، تاريخ الطبري: ١١٥/٧ .

بدعوته إقليمَ خُرسان؛ لأنها مركزُ الدياناتِ الفارسيةِ القديمة التي تعتقدُ الحق الإلهي للحاكم في الحكم، ولما عرف عن الخرسانيين بأنهم "جند لهم أبدانٌ وأجسامٌ، ومناكبُ وكواهلُ وهاماتٍ و لحىً وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة"[٣١]، إضافة لما عرفوا به من حقد على دولة العرب، واستعداد لمطاوعة كل مرجف وناعق بالفتنة، وداع للانقضاض على الخلافة العربية.

توفي صاحب الدعوة العباسية محمد بن علي، وخلفه إبراهيم الإمام الذي استدعى أبا مسلم الخرساني في سنة ١٢٥/٧٤٢م، للقيام بأمر الدعوة في خرسان، وأوصاه قائلاً: "وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في أمرهم، وانظر هذا الحي من مضر، فإنهم العدو القريب الدار فاقتلْ من شككت في أمره شبهة، ومن وقع في نفسك منه شيئاً، **وإن استطعت أن لا تدع بخرسان لساناً عربياً فافعل**، فايّما بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله"[٣٢].

وحمل أبو مسلم الخرساني تلك الوصية الإجرامية الصادرة عن إبراهيم الإمام العباسي، فأمعن في قتل العرب وتشريدهم في خرسان، وهزم جحاجح العرب وفرسانها بقيادة نصر بن سيار الذي طالما دعا العرب إلى الوحدة في خرسان، بعد أن رأى الصراع المرير واشتعال نيران العصبية بين اليمينية والمضرية.

وفي سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م كان اللقاء الأخير مع الجيش الأموي العربي في موقعة الزاب في العراق، وكانت الدائرة على بني أمية، وتمزقَ الجيش العربي بسيوف الخرسانيين بقيادة أبي مسلم، علماً بأن اللغة الفارسية هي لغةُ ذلك الجيش الفارسي، وعدّ الفرسُ الزّاب ثأراً لما جرى لجيوشهم في أيام القادسية ونهاوند وجلولاء وغيرهم من المواقع التي مكنت العرب من نشر الإسلام في فارس وغيرهم من البلدان.

٣١- الجاحظ ، رسائل الجاحظ: ١٠/١.

٣٢- الطبري، تاريخ الطبري: ٧٦/٩ .

وقد وصف الجاحظ حال الجند الخرساني بعد غلبتهم على العرب، فيقول على لسانهم: "ونحن فتحنا البلاد، وقتلنا العباد، وأبدنا العدوّ بكل وادٍ، ونحن أهل هذه الدولة، وأصحاب هذه الدعوة، ومنبت هذه الشجرة، ومن عندنا هبت هذه الريح .... ونحن أصحاب الرايات السود ... والذين يهدمون مدن الجبابرة، وينزعون الملك من أيدي الظلمة ...".[٣٣]

وقامت دولة بني العباس بعد معركة الزاب، وأصبح الجنسُ الفارسي القوة الضاربة في الجيش العباسي على الرغم من وجود العرب في ذلك الجيش، وبدأ الحضورُ العسكري العربي بالتراجع شيئاً فشيئاً حتى تلاشى نهائياً فيما بعد.

وما أن نصل إلى سنة ١٧٨هـ/٧٩٤م حتى شكل الفضل بن يحيى البرمكي جيشاً خرسانياً قوامُه خمسمائة ألف مقاتل وجعل مقره خرسان، وسماه بـ "العباسية"، وجاء بفرقة منه بلغت عشرين ألفاً وسمَها بـ "الكرنبية"([٣٤]) إلى بغداد، وأقامها حرساً للرشيد، مما جعله يغادر بغداد إلى الرَّقة في بلاد الشام خوفاً من انقلاب الكرنبية على خلافته، وتحيناً للوقت المناسب الذي ينقض فيه على دولة البرامكة.

ثم قضى الرشيد في سنة ١٨٨ هـ/٨٠٣م على سيطرة البرامكة التي كادت أن تذهب برياح دولة العباسيين، وآلت الأمورُ من بعده إلى صراع قاتل بين ولديه: الأمين الذي أيدته العرب بقيادة الفضل بن الربيع، والمأمون الذي أيدته الفرس بقيادة الفضل بن سهل، وانتهى الأمر بهزيمة الأمين وجيشه العربي، وأصبح جيشُ المأمون فارسياً في معظمه.

وأود أن أقتبس رواية الطبري بخصوص قتل الفرس للخليفة الأمين بن هارون الرشيد في سنة ١٩٨هـ/٨١٣م ، عندما زحف طاهر بن الحسين الفارسي – لا طهر الله طاهراً كما

٣٣- الجاحظ، رسائل الجاحظ: ١/١٥.

٣٤- نظر: الطبري، تاريخ الطبري: ٨/٢٥٧.

تقول الفاضلة السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد – إلى بغداد، وسمح لجيشه الذي كان يتراطن بالفارسية بجزر الخليفة الأمين، وأوباش الفرس يصيحون بلغتهم الفارسية، يقول الطبري: "فدخل الدار قوم من العجم بأيديهم السيوف مسللة ، فلما رآهم ، قام قائما ، وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ذهبت والله نفسي في سبيل الله ، أما من حيلة ؟ أما من مغيث ؟ أما من أحد من الأبناء ؟ قَالَ : وجاءوا حتى قاموا على باب البيت الذي نحن فيه ، فأحجموا عن الدخول ، وجعل بعضهم يقول لبعض : تقدم ، ويدفع بعضهم بعضا ، قَالَ : فقمت ، فصرت خلف الحصر المدرجة في زاوية البيت ، وقام محمد فأخذ بيده وسادة ، وجعل يقول : ويحكم إني ابن عم رسول الله، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أنا ابن هارون ، وأنا أخو المأمون ، اللهَ اللهَ في دمي ، قَالَ : فدخل عليه رجل منهم ، يقال له : خمارويه غلام لقريش الدنداني مولى طاهر ، فضربه بالسيف ضربة وقعت على مقدم رأسه ، وضرب محمد وجهه بالوسادة التي كانت في يده ، واتكأ عليه ليأخذ السيف من يده ، فصاح خمارويه : قتلني قتلني ، **بالفارسية** ، قَالَ : فدخل منهم جماعة فنخسه واحد منهم بالسيف في خاصرته ، وركبوه ، فذبحوه ذبحا من قفاه ، وأخذوا رأسه ، فمضوا به إلى طاهر ، وتركوا جثته".[٣٥]

وأنهى المأمون الوجود العربي في الجيش العباسي عندما قام بإسقاط أسماء الجند العربي من ديوان عطاء الجيش مع مطلع القرن الثالث الهجري الذي يُعد بداية لإحياء اللغة الفارسية، وصعودها في مشرق العالم الإسلامي، وتراجعت العربية لغةً إدارية وعسكرية في أجزاء واسعة من أرض الخلافة في مشرق العالم الإسلامي، وذلك لتراجع قوة الجيش العربي الذي يعد دعامة أساسية لحماية لغة أمته.

وبلغ النفوذ الفارسي ذروته عندما استوزر المأمون الفضل بن سهل الملقب بذي الرياستين: السيف والقلم، وتمكن ذو الرياسين من المجاهرة برسوم دولة فارس التي عمل على

٣٥- المصدر السابق: ٨/٤٨٦-٤٨٧.

إحيائها وبعثها من جديد، وقد أورد الجهشياري نصاً كاشفاً لما وصلت إليه الأمور من تراجع هيبة العرب في دولة المأمون، وصعود شأن الفرس: " وكان ذو الرياستين يجلس على كرسيّ مُجَنَّح، ويُحمَل فيه إذا أراد الدخول على المأمون، فلا يزال يُحمل حتى تقع عين المأمون عليه. فإذا وقعتْ وُضع الكرسيّ، ونزل عنه، فمشى. وحُمل الكرسِيّ، حتى يُوضَع بين يَدَي المأمون، ثم يسلِّم ذو الرياستين، ويعود فَيَقعْدُ عليه. وكان فيمن يَحمل الكرسي سعيد بن مسلم، ويحيى بن مُعاذ. قال: وإنما ذهب ذو الرّياستين في ذلك إلى مذهب الأكاسرة، فإن وزيراً من وزرائها كان يُحمل في مثل ذلك الكرسي ويَقْعُدُ بين أيديها عليه، ويتولى حملَه اثنا عشر رجلاً من أولاد الملوك"[٣٦].

ويشير نص الجهشياري إلى أن بعضاً من العرب كانوا ممن يحملون ذلك الكرسي المجنح، فربما قصد ذو الرياستين من ذلك إذلال العرب وكسر شوكتهم في الدولة العباسية التي صدق الجاحظ في وصفها بأنها دولة خراسانية.

وأما المرحلة الثالثة في العلاقة بين اللغتين العربية والفارسية، فإنها بدأت مع انحسار الخلافة العباسية عن خرسان وفارس، وما وراء النهر، وأذربيجان، وجرجان منذ مطلع القرن الثالث الهجري، مما أدى إلى قيام مجموعةَ من الدويلات الفارسية في هذه الأقاليم، هي: الطاهرية، والصفارية، والسامانية، والساجية والزيارية.

وعلاوة على ذلك، فإنه قد ظهرت في هذه الحقبة دَولةُ آل بويه الفارسية في سنة ٣٢٠ هـ/٩٣٢م وبقيت قائمة حتى سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، واستولت على فارس والعراق في سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م، أيام خلافة المستكفي بالله العباسي، إلى أن جاء السلاجقة الأتراك في القرن الخامس الهجري تقريباً، فخلصوا العراق وعاصمته بغداد من براثن السيطرة البويهية الشيعية التي أذلت الخلافة العباسية، وأرغمت العرب، وعاملتهم بالذل والهوان.

٣٦- الجهشياري: الوزراء والكتاب: ٣١٦.

إن فتح العراق على يد السلاجقة، وإنقاذه من براثن البويهيين أو الديالمة الفرس كان من جلائل الأعمال التي أسدتها السلطنة السلجوقية للعرب بخاصة، وللإسلام بعامة.

وقد أوضح لنا حقيقة ما جرى في تلك الحقبة الخطيرة التي تمثلت في إذلال الديلم للخليفة العباسي، وتسلطهم على عرب العراق، الوزير العظيم نظام الملك السلجوقي الذي اغتالته الباطنية الفارسية في سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ، وقد كشف لنا عن تلك الحقائق المذهلة في كتابه الجليل: "سيَاست نامَه أو سير الملوك" الذي يُعَد من أنفس ما صنف في فن الحكم والسياسة في التراث الإسلامي.

وقد حظي كتابه النفيس بترجمة إلى اللغة العربية، وقد نهض بهذه الترجمة البارعة النافعة أستاذنا وصديقنا ورصيفنا في مجمع اللغة العربية الأردني الأستاذ يوسف بكار. يقول نظام الملك في كتابه حكاية عن السلطان السلجوقي الذي اقتلع شرور البويهيين من العراق: "فقد كنت في غزو وجهاد مستمر بالهند لكنني أتيتها لكثرة الرسائل المتعاقبة التي كانت تصل إلي من المسلمين، وكلها تتحدث عن فساد الديالمة وظلمهم بالعراق وإظهارهم البدعة والجهر بها، ونصبهم الكمائن على ملتقى الطرق ومعابرها، فكلما مرت امرأة أو غلام طرير وسيم ينقضون عليهم ويأخذونهم عنوة، ويرتكبون الفاحشة معهم، ثم أنهم يخضبون أيدي المرد وأرجلهم بالحناء، ويحتفظون بهم إلى المدة التي يشاؤون ويطلقونهم بعد ذلك.

كما أنهم يلعنون صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، علانية، ويقذفون عائشة الصديقة، رضي الله عنهما، وهي أم المؤمنين بالزنا.

ثم أن المستقطعين يحصلون الخراج من الزراع مرتين أو ثلاثا في السنة، ويفعلون ما يحلو لهم.

أما الملك الذي يلقبونه مجد الدولة فاقتنع بأن يخلعوا عليه لقب ملك الملوك، وله من الأزواج تسع دخل بهن شرعاً.

أما الرعية فأنهم يظهرون مذهب الزنادقة والباطنية علانية في كل مكان بالمدن والأطراف، ويسفهون الله والرسول، ويشتمونهما، وينفون الخالق على الملأ، وينكرون الصلاة والصوم والحج والزكاة، فلا المستقطعون يزجرونهم عن أقوال الكفر هذه، ولا هم يقولون للمستقطعين لم تسبون صحابة رسول الله صلى الله، عليه وسلم وتعيثون في الناس ظلما وفسادا إن كلا الفريقين يؤازر الآخر.

فلما أخبرت بحقيقة الحال، آثرت هذا الأمر على غزو الهند، واتجهت نحو العراق، وسلطت جيش الترك الذين هم حنفيون وأنقى المسلمين على رقاب الديالمة والزنادقة والباطنية لأستأصل جذورهم، فمنهم من قتل بسيوفهم، ومنهم من كبل بالأغلال، وزج به في السجن، ومنهم من تشتت في الآفاق.

ثم أسندت كل الأعمال والمهام إلى سادة خراسان وولاتها وحكامها، فهم من الحنفية أو الشافعية الأطهار، إن هاتين الطائفتين أعداء للرافضة والباطنية، وكل الخارجين على الدين، وعلى وئام مع الأتراك.

ثم نحيت كل الكتبة العراقيين، لعلمي أن أكثرهم من تلك الفئات الباغية، وأنهم يفسدون على الترك أعمالهم، كل هذا لكي أصفي العراق من أصحاب المذاهب الخبيثة، والمعتقدات السيئة، في مدة قليلة بعون الله، عز وجل، فالله تعالى خلقنا لهذا، وولانا الخلق لنمحو المفسدين من على وجه المعمورة، ونحمي أهل الصلاح، ونملأ الأرض عدلا وسخاء ورحمة"[٣٧]

والناظر في النص السابق يمكنه أن يقف على حقيقة الحكم البويهي الفارسي في العراق التي تجلت في الآتي:

٣٧- نظام الملك الطوسي، سياست نامَه: ١٠٢.

– إن الأتراك السلاجقة قد قاموا بدور عظيم في سبيل نشر الإسلام، وفي الدفاع عن الإسلام والمسلمين من المد الباطني الذي نشر الرعب والرهب بين الناس.

– إن أهل العراق قد استنجدوا بالسلطان السلجوقي تخليصاً لهم من مظالم الديالمة الذين اغتصبوا نساءهم وأولادهم، بعد اختطافهم من الطرقات، عنوة وقهراً، علماً بأن السلطان السلجوقي كان منشغلاً بأمر عظيم، وهو نشر الإسلام في بلاد الهند، واقتلاع طواغيت الهنادك من طريق دعوة الحق.

– تطاول الديلم بألسنتهم البذيئة على صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالطعن والذم، وتناولهم بالقدح والشتم، وقذفوا أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، وهي الصديقة ابنة الصديق رضي الله عنهما.

– مارس الديلم الظلم في تحصيل المكوس والخراج المفروض على الأرض، إذ أخذوه من الفلاحين مرتين أو ثلاثاً في السنة الواحدة خلافاً لأحكام الشرع.

– إن ملكهم عضد الدولة قد خالف أحكام الشرع في زواجه من تسع نساء في آن واحد.

– إن بِدَع الزنادقة والباطنية قد انتشرت بين عامة الناس، فعُطلت الصلاة، وانقطع الحج، وتُرك الصوم، ومُنعت الزكاة ، إلى غير ذلك مما أمر به الشرع أو نهى عنه، فعاد عامة الناس إلى أيام الجاهلية الجهلاء، وتركوا أحكام الشرع والدين، ودخلوا في زمرة الكافرين.

– إن أتباع المذهب الحنفي وهم جمهرة الترك، وأتباع المذهب الشافعي وهم أهل خراسان كان لهم دور عظيم في دفع شرور الديلم والباطنية والزنادقة عن أرض العراق، علماً بأن هذا الدور الحاسم الذي اضطلع به الترك في تاريخ الإسلام لم يقتصر على مشرق العالم الإسلامي والعراق، بل امتد إلى بلاد الشام والحجاز ومصر وغيرها، فكنس الترك الباطنية والعبيديين الذين أضاعوا القدس وبلاد الشام وسلموها للصليبيين ، وخلصوا الناس من عقائدهم الباطنية

وضلالاتهم، وأنقذوهم من شركهم وجهالاتهم، بعد أن أناخوا بشرهم وشرورهم، وغدرهم وفجورهم، وظلامهم وديجورهم، على هذه الأرض المقدسة، مدة نيفت على مائتي عام، وما زالت شراذمهم وأذنابهم يعيثون في الشام فساداً وقتلاً، وتدميراً وغدساً.

- إن السلطان السلجوقي عزل كُتاب دولة البويهيين، وأفرغ الجهاز الإداري منهم، وذلك لتثبيتهم لأركان الدولة البويهية من جانب، وخوفاً من إفسادهم الفتح السلجوقي الذي حطم أغلال البويهيين التي أذلت العراق، وحصرت الخلافة العباسية بعد قمعها وقهرها وإذلالها وحصرها.

وبقي السلاجقة في العراق وبلاد فارس والأنضول وغيرها من البلدان حتى مطلع القرن السابع الهجري وظهور المغول أو التتر الذين حطموا أملاك آل سلجوق، فأغراهم العلاقمة بعد ذلك بالاستيلاء على أرض العراق في سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م، وقاموا بقتل أهل بغداد الذين قدرتهم بعض المصادر بألفي ألف يعني مليوني إنسان عربي، وارتكب المغل من القتل والجرائر، والجرائم والمجازر، ما تقشعر له الأبدان، وتشيب لهوله الولدان، فكانوا من أعظم الأسباب التي أدت إلى تدمير الحضارة الإسلامية، وتقدم الغرب الذين نجا من فتك التتار، وتدميرهم المروع للإنسان والعمران، والبشر والحجر، فهم الجراد الزاحف المخرب كما وصفهم شعراء العربية يومذاك.

وقد تميزت العلاقة بين اللغتين في هذه الفترة وما تلاها بالآتي:

أولاً– تنافست الدويلات الفارسية الآنف ذكرها فيما بينها على إحياء اللغة الفارسية، وإعادتها لغة للأدب والإدارة.

ثانياً – قام السامانيون في خرسان وبلاد ما وراء النهر: بخارى، وغزنة، وجرجان، ونيسابور، وسمرقند بإحياء اللغة الفارسية لغة أدبية، فعج بلاطهم بالشعراء والأدباء الفرس، على

الرغم من حياة اللغة العربية في تلك البلاد، علماً بأن العربية كانت قد رسخت فيها منذ أيام الخلفاء الراشدين.

ثالثاً – ظهر في تلك الحقبة الأدبُ الملحمي الفارسي، إذا شجع نوحُ بن نصر الساماني الشاعر الدقيقي في القرن الرابع الهجري على نظم ((الشاهنامة))، وهي الملحمة الفارسية القومية، ثم أتمها الفردوسي في مطلع القرن الخامس الهجري، وقدمها للسلطان محمود الغزنوي المتوفى سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م.

رابعاً– كُتبت وثائق الدولة السامانية باللغة العربية، وبقيت مستخدمة في دواوين الدولة وإداراتها.

خامساً – تم في العهد الساماني ترجمة بعض الكتب العربية إلى اللغة الفارسية، ومما نقل في تلك الفترة "تاريخ الطبري" الذي حُوّل إلى الفارسية بعنوان "تاريخ بلعمي" نسبه للوزير الساماني محمد البلعمي الذي أشرف على الترجمة التي تمت في سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م. وتُرجم إلى الفارسية "تفسير الطبري" أيضاً.

سادساً – بدأ العلماء في التأليف في موضوعات اللغة الفارسية، ومن هذه المؤلفات كتاب "تاج المصادر" المنسوب للشاعر الرودكي المتوفي سنة ٣٢٩ هـ/٩٤٠م، و"مقدمة الأدب" للزمخشري المتوفى ٥٣٨ هـ/١١٤٣م، وكتاب الزمخشري "ديوان الأدب" وهو معجم مشترك بين العربية والفارسية، علماً بأن محقق هذا الكتاب من الفرس المعاصرين حمل على العرب ولغتهم حملات عنيفة في مقدمته للكتاب، وقد اطلع كاتب هذه السطور على هذا المعجم منذ عقد من الزمان، وهو ليس بين يدي الآن في مكة – حماها الله –.

سابعاً – اتخذ السلاجقةُ الفارسيةَ لغةً إداريةً في دولتهم المترامية الأطراف، مما عزز من مكانتها وانتشارها طوال العصر السلجوقي، وبقيت اللغة العربية لغة رسمية في العراق ومنطقة الجزيرة الفراتية وبلاد الشام.

ثامناً – أصبحت اللغةُ العربية لغةَ العلم في الدولة السلجوقية، وذلك بفضل المدارس النظامية التي شيدها نظام الملك السلجوقي، وقد أدت هذه المدارس الجليلة دوراً عظيماً في الحفاظ على اللغة العربية في مشرق العالم الإسلامي، وفي إعادة إحياء السنة التي هدد وجودها دعاة الباطنية في تلك الفترة، وهو ما سبقت الإشارة إليه.

تاسعاً – عاش الأدب العربي والأدب الفارسي جنباً إلى جنب في ظل الدولة السلجوقية، وبرز مئاتُ الأدباء والعلماء الذين يجيدون اللسانيين: العربي والفارسي، أمثال: الثعالبي، والزوزني، والغزالي، والميداني، والزمخشري، والعماد الإصفهاني، وعمر الخيام، والباخرزي، وغيرهم المئات، ومن طالع موسوعة العماد الأصفهاني الموسومة بـ "خريدة القصر وجريدة العصر" وقف على تراجم عشرات الأدباء من ذوي اللسانيين[٣٨].

عاشراً – أخذ الفرس عن العرب الخط العربي، وكانوا قبل ذلك في المرحلة الساسانية يكتبون كتبهم بالخط البهلوي، وأطلق على لغتهم اسم اللغة البهلوية، علماً بأن الخط البهلوي كان مقصوراً على الموابذة (القضاة)، والهرابذة (سدنة النار)، وكتاب الدواوين، وعلماء اللغة، وقد وصف المستشرق براون صاحب تاريخ الأدب الفارسي هذا الخط قائلاً: "وليس للخط البهلوي أيُّ نصيبٍ من القيمة الذاتية إلا في

٣٨- انظر: الأصبهاني، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم الشعراء العجم) : ج٢، ص١٥١، ١٧٤.

غموضه... لهذا لم يستطع الصمود في وجه الخط العربي الأكثر سلاسةً وتناسباً"[٣٩].

وبناء على قول بروان المتقدم، ونظراً لصعوبة البهلوي وغموضه، فإن اتخاذ الفرس للخط العربي كان منحةً عظمى حبتها اللغة العربية لصديقتها وجارتها الفارسية، ولذلك فإن الفرس في مطلع القرن الماضي رفضوا ضغوط انجلترا وروسيا عليهم بخصوص التخلي عن الحرف العربي، واستعمال الحرف اللاتيني، وقالوا: إننا لا نريد أن نفقد تراثنا مرتين، وهم محقون في ذلك، مما يدل على عقل ذكي ناضج، ورأي سديد صائب ضارب في جذور الحضارة العميقة، وغير مهرول لطاعة الغازي الأقوى في حالات مواطن الضعف والإنحسار، كما فعل مصطفى كمال أتاتورك "الرجل الصنم" في لغة الترك على جميل صنيعهم، وضخامة دورهم في التفريج عن الإسلام والدفاع عنه، ولله الشهاب الحلبي في مطلع بائيته الرائعة التي قالها في فتح عكا (٦٩٢هـ/١٢٠٢ن)، عندما تمكن المماليك الأتراك من اجتثاث السرطاني الإفرنجي من بلاد الشام بعد مائتي عام من الاحتلال، يقول:

الحمد لله ذَلّت دَولةُ الصُّلبِ وعزَّ بالتُّركِ دينُ المصطفى العَرَبِ

حادي عشر – أصبحت ثقافة الأديب الفارسي مزيجاً من الثقافتين: العربية والفارسية، وأصبح معروفاً لدى أدباء فارس بأن رُقي أسلوبِ الأديبِ عندهم لا يكون إلا بقراءة القرآن وحديثِ النبي – صلى الله عليه وسلم – وآثارِ الصحابة، وأمثالِ العرب، وكلماتِ العجم، ومطالعة كُتب السلف، والنظر في صحف الخلف، والاطلاع على رسائل الصاحبِ بن عبادِ، وقُدامة بن جعفرِ، ومقاماتِ بديع الزمان

٣٩- بروان، تاريخ الأدب في إيران: ج١، البابان الأول روالثاني، ص٤٦.

الهمذاني، والحريري، وحميدي، ومن دواوين العرب: ديوانُ المتنبي، ومن شعراء العجم: أشعارَ الرودكي، وشاهنامة الفردوسي وغيرهم"[٤٠].

ثاني عشر– تدفق سيل هائل من الألفاظ والمصطلحات الدينية والأدبية والعلمية العربية إلى اللغة الفارسية، إضافة إلى الآيات القرآنية، والأمثال العربية، والأبيات الشعرية، التي استخدمت في كتاباتهم الأدبية والتاريخية والدينية والعلمية استخداماً مكثفاً، وعُدّ ذلك عندهم إبداعاً وتميزاً، وجمالاً ورونقاً.

ثالث عشر – وسمَ الفرسُ كثيراً من كتبهم المؤلفة أو المترجمة بأسماء عربية، مثل: "منطق الطير"، و"جامع التواريخ"، و"حديقة الحقيقة"، و"تذكرة الشعراء"، و"تذكرة الأولياء"، و"دستور الوزراء الخ....".

رابع عشر – طغى الذوق البديعي الذي غلب على الأسلوب العربي منذ مطلع القرن الرابع الهجري تقريباً وحتى نهاية العصر العثماني، على الأسلوب الأدبي الفارسي، ونظم بعض شعراء الفرس البديعيات، وهي القصائد التي يَذكر في كل بيت منها فَن من فنون البديع، ومن هؤلاء الكَنجوي أحدُ شعراء القرن السادس الهجري الذي نظم قصيدَة "بدائع الأسحار في صنائع الأشعار".

وفوق ذلك، فإن رشيد الدين الوطواط المتوفى سنة (٥٧٣ هـ/١١٧٧م) وهو كاتب مترسل في العربية والفارسية، قد ألّف كتاباً في البديع، وسمه بـ "حدائق السحر في دقائق الشعر"، جمع فيه بين اللغتين العربية والفارسية، وألفه برسم خزانة الملك السلجوقي "خوارزم شاه أتسز"، يقول الوطواط في مقدمة كتابه المذكور آنفاً: "... فرأيت من الواجب عليَّ... أن أكتبَ هذا الكتاب في معرفة محاسن النظم والنثر في اللغتين العربية والفارسية، وجَميعُ ما

٤٠– انظر: السباعي، النثر الفارسي: ٢٠ .

أوردته فيه إن هو إلا غيض من الفيض الحاصل لملك الإسلام خلد الله مُلكَه وسلطانه.."[٤١].

وعناصر التأثير والتأثر، والتفاعل والتواصل، والعطاء والأخذ، بين العربية والفارسية كثيرة وعميقة، وضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، ولكنه ينبغي الالتفات إلى بضعة أمور أساسية ومفصلية في العلاقة بين اللغتين والشعبين:

الأول – إن السامانيين حكام خرسان وما وراء النهر في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وفي القرن الرابع الهجري، قد جعلوا من اللغة الفارسية لغة أدبية، ثم إن السلاجقة الذين حكموا أجزاء واسعة من العالم الإسلامي في القرنين الخامس والسادس الهجريين – وهم سنة – قد لعبوا دوراً عظيماً في إحياء اللغة الفارسية، إذ جعلوا منها لغة إدارية تكتب بها الوثائق والسجلات في دولتهم الواسعة[٤٢].

وانتشرت الفارسية في دولة بني سلجوق انتشاراً واسعاً في العالم الإسلامي، ومع ذلك فإنهم لم يهملوا اللغة العربية، فوزيرهم العظيم نظام الملك السلجوقي أسس المدارس المعروفة بالنظامية في الحواضر الكبرى لدولة بني سلجوق، مما مكن العربية من البقاء والاستمرار في الوجود في مشرق العالم الإسلامي، وفي بلاد العراق والشام والأناضول، لغة علمية وأدبية.

الثاني– إن إندفاعَ التتار نحو العالم الإسلامي في مطلع القرن السابع الهجري، ثم تدميرَ دول السلاجقة، و القضاء على دولة الخلافة في العراق والموصل، وما تبع ذلك من تحول التتر إلى المذهب الإمامي الاثني عشري في بلاد إيران والعراق، وقيام الدولة المغولية الإلخانية، ثم الدولة التيمورية في هذين القطرين كان كارثة كبرى على اللغة العربية، إذ حلت الفارسية

٤١– الوطواط، حدائق السحر في دقائق الشعر: ٨٩ .

٤٢– انظر: سمير الدروبي، الترجمة والتعريب بين العصرين العباسي والمملوكي: ١١٨ – ١١٩ .

والمغولية محلْ العربية في العراق وإيران وآسيا الوسطى والصغرى، واقتلعت العربية من مهدها وحماها في أرض العراق لغة إدارية وعلمية، وقد استمر ذلك عدة قرون.

يقول القلقشندي المتوفى في القرن التاسع الهجري واصفاً الظروف العصيبة التي مرت بها لغة العرب: "لما انقرضت الخلافة في بغداد في وقعة هولاكو، ملك التتار في سنة ست وخمسين وستمائة. واستولت المغلُ والأعاجمُ (الفرس) على بغداد، بطل رسمُ الكتابةِ المعتبِرة، وصار أكثرُ ما يكتب عن ملوك التتار بالمغلية أو الفارسية، والأمر على ذلك إلى زماننا"[٤٣].

الثالث – إن ظهور الأتراك العثمانيين على مسرح الأحداث، وزحفهم، بعد معركة مرج دابق المؤسفة سنة ٩٢٣ هـ/١٥١٧م، إلى بلاد الشام ومصر والحجاز والمغرب العربي، ثم دخولهم العراق بعد معركة جالدريان سنة ٩٥٣هـ/١٥٤٦م، كان إنقاذاً للشرق العربي من سياسة التفريس التي مارسها الصفويون في العراق، وما عُرّب العراق إلا بفضل العثمانيين.

وفوق ذلك، فإن اللغة الفارسية قد ازدهرت ازدهاراً عظيماً في الدولة العثمانية، وأصبحت العربية لغة العلم، والتركية والفارسية والعربية لغات الأدب، وشمل ذلك معظم البلاد التي طالها الفتح العثماني من الهند شرقاً حتى مصر غرباً، ويكفي أن نعرف أن البارودي وهو أحد كبار رواد الشعر العربي الحديث له ديوان بالفارسية وآخر بالتركية، وقبله عشرات الشعراء والكتاب الذين أحكموا اللسانين الفارسي والتركي إضافة إلى اللسان العربي.

وكانت اللغة الفارسية في العصر العثماني تدرس في مدارس القاهرة ودمشق وبلاد الأناضول، والعراق جنباً إلى جنب مع اللغتين العربية والتركية، وهو مثال رائع لتعايش لغات الشعوب الإسلامية؛ لأن العرب يستمدون موقفهم الفكري من لغات الشعوب والأمم من هدي القرآن الكريم القائل باختلاف ألسنة البشر وألوانهم مع أن الأصل واحد.

٤٣- القلقشندي، صبح الأعشى: ١/ ٩٤ .

الرابع – إن العربية قد تعرضت لحملات شديدة وشرسة من الشعوبيين الفرس الذين انبرى للرّد على دعاويهم وأحقادهم كوكبة من علماء الإسلام وكبار مفكريه، علماً بأن أكثر الردود عليهم كانت تأتي من علماء المسلمين الفرس وأدبائهم، ومن هذا القبيل الذي ردّ مزاعم الفرس الشعوبيين إلى نحورهم: ابن قتيبة، و أبو حيان التوحيدي، والصاحب بن عباد، والبيروني، وأبو سليمان المنطقي، والزمخشري وغيرهم.

وأود أن أقتبس نصاً طريفاً مناسباً لهذا المقام، والنص لأبي الريحان البيروني المتوفى سنة (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) الذي يُصنّف في تاريخ العلم على أنه واحد من أبرز رموزه وعباقرته، يقول: "ديننا والدولة عربيان وتوأمان، يُرفرفُ على أحدهما القوة الإلهية، وعلى الآخر اليدُ السماوية، وإلى لسانِ العرب نقلت العلومُ من أقطار العالم، فإن دانت كذا وحلت في الأفئدة، وسرت مَحاسنُ اللغة منها في الشرايين والأوردة، وإن كان كلُّ أمةٍ تستحلي لُغتَها التي ألفتها واعتادتها... والهجو بالعربية أحبُّ إليّ من المدح بالفارسية، وسيعرف مِصداقَ قولي من تأمّل كِتابَ علمٍ نُقل إلى الفارسي كيف ذهب رونقه وكَسِفَ باله، واسود وجهه، وزال الانتفاع به؟! إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلة"[٤٤].

إن شهادة البيروني السابقة على درجة كبيرة من الأهمية، وخاصة إذا علمنا أن الرجل قد صنّف جلّ مؤلفاته العلمية بلغة العرب، كما أنه صنف أقلها بالفارسية، فقوله قول اللغوي العالم الذي يعرف اللغتين ويصنف فيهما، فهي في الأقل شهادة عالم ثبت منصف لا يعرف تحيزاً في حكمه، ومن هنا جاءت شهادته للعربية بأنها لغة العلم في عصره بلا مدافع، واستمرت العربية حاملة لراية العلم على مدى ألف عام.

وحملت لغة العرب كنوز العلم العربي الإسلامي الإنساني في الطب والفلك، والفلاحة والهندسة والرياضيات وغيرها من العلوم النافعة، وجعلت منها منهلاً عذباً للراغب من بني

٤٤– البيروني، الصيدنة: ١٢.

البشر، علماً بأن الفارسية كغيرها من اللغات قد عجزت عن النهوض بأعباء هذا الدور قبل العربية بقرون.

وقد كشفت المستشرقة العظيمة زغريد هونكة عن هذه الحقيقة الباهرة في كتابها الذائع الصيت والموسوم بـ "شمس العرب تستطع على الغرب"، تقول: "إن ما حققه العرب لم تستطع أن تحققه شعوب كثيرة أخرى، كانت تمتلك من مقومات الحضارة ما كان يؤهلها لهذا. بيزنطة وريثة الحضارتين: الشرقية والإغريقية بقيت على جهالتها، مع أنها، بلغتها اليونانية، كانت أقرب الناس إلى الحضارة الإغريقية.

والسوريون [السريان]، هم تلامذة الإغريق، كما كان لهم من الحضارة قبل الإسلام حظ وفير، لقد نقلوا عن طريق الترجمة، كثيراً من أعمال الإغريق إلى لغتهم . ولكنهم أيضاً، كبيزنطة، فشلوا في أن يجعلوا مما اقتبسوه عن الإغريق بذرة لحضارة تزدهر كما فعل العرب فيما بعد.

ولم تكن فارس التي اقتبست من حضارات الصين والهند والإغريق بأسعد حظاً من بيزنطة أو سورية. وبرغم تحسن الحالة الاقتصادية في تلك البلاد، ورعاية الدولة للعلوم والعلماء، فإنه لم يتح لحضارة تلك البلاد أن تصبح حضارة مبتكرة مؤثرة إلا في جو عقلي آخر، وفي ثنايا حضارة ثانية أنجح هي الحضارة العربية"[٤٥]

وبناء على رأي هونكه، ونتائجها العلمية الدقيقة، فإن لغة العرب هي الوعاء الفكري الأصيل بما لها من خصائص بنائية وجوانية دقيقة، قد تمكنت من حضانة الفكر العلمي الإنساني في جو رائع من التسامح الديني والفكري[٤٦].

٤٥- هونكه، زيغريد: شمس العرب تسطع على الغرب: ٣٥٤-٣٥٥.

٤٦- انظر: سمير الدروبي: مجلة ترجمان، جامعة عبد المالك السعدي، المغرب، مجلد ٨، عدد١، ١٩٩٩م، ص٥١-٩٣.

وفوق ذلك، فإنه قد تمكن العرب من توفير المنهجية العلمية الصحيحة القائمة على التمحيص والتحقيق والترجمة والنقل، والفهم الدقيق لصفوة ما أنتجه الفكر العلمي الإنساني، ثم تطويره والإبداع فيه، في حين أن اللغات : الإغريقية والسريانية والفارسية وغيرها قد قصّرت عن ذلك الشأو الذي سمت إليه العربية.

الخامس – إن إمارةً عربية قد نشأت في منطقة الأحواز جنوب إيران منذ القرن العاشر الهجري، وكانت العربية هي لغتها الأدبية والإدارية والعلمية ، وظهر في هذه الإمارة علماء وأدباء أسهموا في حضارة أمتهم، ويبلغ عدد سكانها الآن عشرةَ ملايين من العرب السنة الذين ينحدرون من قبائل عربية معروفة، فهم من: تميم، وهوازن وربيعة وخفاجة وغيرها.

و قامت بريطانيا بضم الإمارة العربية الأحوازية الغنية ببترولها ومياهها إلى دولة الشاه في سنة١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م، مما أدى إلى ثورات عربية متلاحقة في هذه المنطقة، ولما ذهب الله بدولة الشاه، وجاءت دَولةَ الملالي تعرض عرب الأحواز لأبشع أنواع التفريس، ومحو الهوية العربية، ومنع تعليم لغة العرب لأبنائهم، علماً بأن مؤسس دولة الملالي قد آواه العرب، وأقام بينهم ضيفاً مكرماً ما يزيد على سبعة عشر عاماً، ولكن هذا عندهم هو جزاء الإحسان وصدق الشاعر العربي إذ يقول:

أكلت شُويهتي وربيت فينا فمن أدراك أن أباك ذيب

وما تقوم به إيران الآن ضد إخواننا في الأحواز لا يقل في بشاعته عما فعلته مَحاكمُ التفتيش في الأندلس قبل قرون، فالفرس المعاصرون يحاربون العربية، بل يمنعونها من المدارس والمعاهد والجامعات والمصارف والمحاكم، وقاموا بتغيير أسماء المدن العربية، فالمحمرة سموها خرم شهر ، وعبادن أصبحت آبادان، والحويزة أصبحت الهويزة.... إلخ.

كما أنه ليس من حق أي عربي أحوازي أن يسمي أولادَه بأسماء عربية، بل لا بد من الأسماء الفارسية، وإذا ما عقد مجلس خاص لتعليم القرآن واللغة العربية يعتقل من حضر

ذلك المجلس، وتنسب له تهمةُ الإرهاب ومحاربة الله ورسوله، والفساد في الأرض، ونشر المذهب الوهابي.

وفوق ذلك؛ فإنه يجري تدمير الآثار العربية وطمسها، وتهجير العرب من ديارهم وأرضهم، وتوطين الفرس في ديارهم.

والأنكى والأدهى من ذلك أنهم يزجون بأهل الأهواز في السجون، ويعلقون أحرار العرب رجالاً ونساءاً على أعواد المشنق، وآخر ذلك قبل أسبوعين، وقلما يخلو شهر من أرواح عربية تزهق في أرضهم الأحواز على يد المحتلين الغاصبين الفرس، وهل تختلف أعمال الفرس في الأحواز عن أعمال اليهود المغتصبين لأرض فلسطين من بلاد الشام؟!.

السادس– تبنى بعض الفرس سياسة الاغتيال والقتل وتأجيج، روح العداء ضد العرب منذ أيام الجاهلية وحتى يومنا هذا، فهم الذين قتلوا سيدنا عمر بن الخطاب الذي بلغهم دعوة الله ورسوله، ودلهم على الدين الحق، ولكن – وللأسف – فإنهم يعدون يوم قتله عيداً من أعيادهم القومية، أما قاتله الآثم أبو لؤلؤة فيعدونه بطلاً من أبطالهم القوميين، وأقاموا له مقاماً كتبوا عليه بماء الذهب: هذا مقام الهمام، الشجاع، البطل، الباسل، المؤمن، التقي أبي لؤلؤة فيروز، وغيرها من الألقاب التي تمجد ذلك الغادر، الجبان، الخسيس، النذل، الذي طعن أمير المؤمنين في صلاة الفجر، وقتل معه عشرة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد شاهدت أحد شياطينهم وأدعياء العلم منهم على إحدى الفضائيات مفتخراً وممجداً لفعل أبي لؤلؤة، وهو يلوك بشدقيه عبارات المديح والبسالة لذلك الإرهابي الغادر القاتل لصحابة رسول الله في صلاتهم وهو بين يدي ربهم.

وقتلوا عشرات من قادة العرب وخلفائهم وأبطالهم، منذ قتل أمير المؤمنين ابن الخطاب وحتى اليوم غيلة وغدراً، وكيداً ومكراً، وصدق نصر بن سيار – وهو الفارس الخطيب

الشاعر الذي استبسل في الدفاع عن وحدة الدولة لاعربية الإسلامية، وهو شيخ في العقد الثامن من عمره – في قوله:

فمن يكن سائلاً عن أصل دينهم فإن دينهم أن تُقَتل العَربُ

إن قول نصر بن سيار ذو دلالة عميقة ، فهو يكشف لنا عن العقل الباطن في الهوية القومية الفارسية التي عَدَّت قتل العرب من جلائل الأعمال، وأمارات البطولة قبل الإسلام وبعده، فقد طلب يزدجر ملك الفرس وفداً من العرب قبل معركة القادسية، فلما مثلوا بين يديه قال: "إنني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى، ولا أقلّ عدداً، ولا أسوأ ذات بين منكم؛ قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا كم. ولا تغزون فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عدد لحق [كذا] فلا يغرَّنكم منّا، وإن كان الجَهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خِصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم"[٤٧]

ولم يكتف يزدجر ملك الفرس بهذا الكلام الجارح القبيح المحقر المذل للعرب جميعاً، بل تعدى ذلك إلى إهانة الوفد العربي – الذي جاءه داعياً إلى الإسلام – ، فطلب أشرف رجل في الوفد ، وحمل عليه كيساً من تراب، وأمر بأن يساق حتى يخرج من باب عاصمته المدائن ، وقال مخاطباً الوفد: "ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليكم رستم حتى يُدفيكم ويدفيه في خندق القادسية، وينكل به وبكم من بعد، ثم أورده بلادكم، حتى أشغلكم في أنفسكم بأشدَّ مما نالكم من سابور!"[٤٨]

قلت: إن المقصود بسابور في قول يزدجر السالف هو أحد ملوك الفرس القدماء الذي عرف بسابور ذي الأكتاف؛ لأنه كان إذا خرج للصيد ولم يظفر به، قبض على بعض

٤٧- الطبري – تاريخ الطبري: ٤٩٩/٣.

٤٨- المصدر السابق: ٥٠٠ – ٥٠١

العرب، وخلع أكتافهم؛ تسلطاً وقهراً، نكاية وحقداً، وإرهاباً لبقية العرب من التجرؤ على الدخول إلى دولة فارس التي كانت مغتصبة لأرض العرب في العراق وأطراف جزيرة العرب.

إن فخر يزدجر بسلفه سابور أو شابور لا يدلُّ على بطولة ملوكهم، بل هو برهان على خورهم وضعف نفوسهم ، وقلة رحمتهم لمن هو في حماهم أو ملكهم، فما زاد في أفعاله المنكرة السادية وغير الإنسانية عن ان استفرد ببعض رعاة الأعراب العزل في الأرياف والبوادي ممن كانوا يكدون في طلب الماء والكلأ، ويبتغون النجعة لإبلهم وأغنامهم في سنوات القحط والجدب، فأسرهم واستأسد على أولئك الأعراب الجياع الضعفاء، ففتك بهم، ويتم أطفالهم، وأيّم نساءهم وخلّع أكتافهم، وهل فعل ملوك فارس يماثل ما كانت تفعله العرب من إكرام للضيفان، وحماية المستأمنين، وتأمين الخائفين بل إن العربي يعد نفسه خادماً للضيف مادام نازلاً كما ورد في أشعارهم وروي من أخبارهم.

ويبدو أن فخر ملوك الفرس بخلع أكتاف العرب، وبث الرعب والخور في قلوبهم بقي متوارثاً عندهم حتى واجهوا العرب مواجهة حقيقية في يوم القادسية، عندما ندب ابن الخطاب العرب للقاء الفرس، فهب ألف رجل من أنصار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وألف من شجعان هوازن، ونهض أهل نجران، وأهل الردة ، وقبائل: تميم، وربيعة، وبجيلة، وكندة، ونهد بنو نهد، واستأسدت بنو أسد، وغيرها من القبائل العربية التي توحدت تحت راية الإسلام على قلب رجل واحد.

لقد تمت المواجهة بين الفرس بقيادة رستم والجالينوس، ومهران والهرمزان، والذين كانوا يقودون ما نيف على ثلاثمائة ألف مقاتل من الفرس وأتباعهم، وبين جيش الفتح العربي الإسلامي بقيادة سعد بن أبي وقاص – وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله – ومعه أبطال العرب وأعيانها، وحماتها وشجعانها؛ أمثال: القعقاع بن عمرو، وعمرو بن معديكرب

الزبيدي، وطليحة بن خويلد، وأبي محجن الثقفي وغيرهم العشرات من أهل النجدات والبطولات.

وقاد سعد بن أبي وقاص الجيش العربي الإسلامي الذي لا يزيد عدده عن ثلاثين ألف مقاتل، فواقع بهم جيش الفرس الذي تجاوز ثلاثمائة ألف مقاتل كما أسلفنا، فأقسم قادة الفرس على إبادة العرب، وحلف رستم بالشمس ألا يرتفع عليه صباح الغد حتى يقتل العرب أجمعين، وأخذ من قادته ومساعديه الأيمان والمواثيق والعهود بالنار المقدسة على عدم الفرار من أرض المعركة.

وفي يوم الواقعة، يوم القادسية — قدس الله ذكره – تسربل الفرس بحديدهم، وركبوا فيلتهم الضخمة، وتسلسلوا بسلاسلهم حتى لا يفر أحد منهم من أرض المعركة، فاستعد المسلمون وقرأ القرّاء عليهم سورة الجهاد التي قرئت في كل الكتائب "فهشّت قلوب الناس وعيونهم، وعرفوا السكينة مع قراءتها"[٤٩]

وعندما دارت رحى تلك المعركة الرهيبة الفاصلة، أبدى فرسان العرب بل عامة جندهم ضروباً من الشجاعة الدالة على حقيقة العربي، وجوهر البطولة الكامن في نفسه، وقدرته على الاقتحام، وضرب الهام، وهو يصول على خصمه بقلب الأسد إذا درات رحى الحرب، وكان وقودها جثث وهام، وخاصة بعد أن أضرم الإيمان جذوة البسالة الفطرية في نفسه الشريفة، وزادها وطيس الحرب اشتعالاً وتأججاً، فاتحاً لها طريق الولوج إلى الجنة إذا ما قاتلت في سبيل الله، ودفاعاً عن الأرض والعرض.

وأضرب مثلاً واحداً بما كان من عمرو معديكرب الزبيدي أحد رجال القادسية، بعد أن حدد سعد موعد بدء المعركة بعد صلاة الظهر امتثالاً للسنة النبوية، فكبّر الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة و"تطاردت الخيل والفرسان، خرج رَجُل من القوم [الفرس] ينادي: مَرد

٤٩– الطبري، تاريخ الطبري: ٥٣٧.

ومرد، فانتدب له عمرو بن معديكرب وهو بحياله فبارزه فاعتنقه، ثم جلد به الأرض فذبحه، ثم التفت إلى الناس فقال: إن الفارسي إذا فقد قوسه فإنما هو تيس"[٥٠]

ويروي الطبري رواية أخرى قريبة من السابقة في فحواها ودلالتها، والرواية عن قيس بن أبي حازم، قال: "مرّ بنا عمرو بن معديكرب، وهو يتحضّض الناس بين الصّفين، وهو يقول: إن الرجل من هذه الأعاجم إذا ألقى مِزراقه، فإنّما هو تيس؛ فبينا هو كذلك يتحرضنا، إذ خرج إليه رجل من الأعاجم، فوقف بين الصفين فرمى بنُشّابة، فما أخطأت سِية قوسه وهو متنكّبها، فالتفت إليه فحمل عليه، فاعتنقه، ثم أخذ بِمِنطقته، فاحتمله فوضعه بين يديه، فجاء به حتى إذا دنا منا كسر عنقه، ثم وضع سيفه على حلقه فذبحه، ثم ألقاه. فقال: هكذا فاصنعوا بهم!"[٥١]

وللقارئ أن يقارن بين أنموذج دعاوى ملوك الفرس بالبطولة، وشدة القوة والأيد على العرب قبل الإسلام، عندما كانوا يخلعون أكتاف رعاة العرب وتجارهم، أو أكتاف أهل الفيافي والقفار المنقطعين الذين أجدبت محالهم، فلجأوا إلى أطراف دولة الفرس يطلبون ما يسد رمقهم، ويبقي حياة مواشيهم، وبين بطولة العرب في أرض المعركة، ولما لديهم من شدة بأس في قراع الخطوب، وفلق هام الأقران في الحرب الزبون.

وأخيراً فإن المأمول من إخوتنا في الدين هو الكف عن إيذاء العرب، وإثارة نعرات الجاهلية وثاراتها، والإقلاع عن التصدي للغة العرب ومحاربتها في أرض أهلها من الأحوازيين.

والأدهى من ذلك أنهم آزروا، بل سلطوا حكاماً أوطوائف يتبعونهم في المذهب، على بلاد العرب: عراقها وشامها ويمنها وغيرها، فعاث أولئك الطواغيت فساداً في أرض العروبة، لقد تسلط زبانية الفرس وأذنابهم على الأرواح البريئة، فانتزعوا منها مئات الآلاف، وعلى

٥٠- المصدر السابق: ٥٣٧

٥١- الطبري، تاريخ الطبري: ٥٣٧/٣.

أموال العرب فأفنوها، وعلى مدنهم فقصفوها ودمروها، وعلى الحرائر فاغتصبوها، وعلى الأرزاق فقطعوها، وعلى الثروات فنهبوها، فيكون نصر بن يسار قد صدق في مقولته بأن دين القوم أن تقتل العرب!!

وهل اختلف خطابهم في عصرنا عن خطاب رستم للعرب في القادسية: "لم يكن في الناس أمة أصغر عندنا أمراً منكم ... لا نراكم شيئاً ولا نعدُّكم"[٥٢] ؟!

إن أمة العرب لا تعرف إلا المحبة والتسامح، وتدعو دوماً إلى التخلي عن الإحنة والعداء، وترك الغل، ونبذ القتل، وإخماد نيران الفتن النائمة التي لعن نبينا – عليه السلام – من أثارها أو أيقظها.

والمأسوف عليه أن العرب أصبحوا أصغر أمة عند الفرس وغيرهم من الأمم؛ لأن الأمم اجتمعت وتفرقنا، وبنت الصناعات العظيمة وفشلنا، ودرست العلوم والمعارف العصرية بلغاتها الوطنية وما فعلنا، وحرمنا أبناءنا من دراسة علوم العصر بلغتهم التي هي لغة العلم، وافتخرت الأمم بلغاتها ورفعتها وأحبتها، ولكن مال كثير منا إلى التراطن بلغات العجم وعظّمها؛ لأنها أصبحت عندهم عنوان الرقي والحضارة.

لكل ذلك صغرنا وهُنّا على الناس، وتداعت الأمم علينا، ولكن الثابت والصحيح أن العرب هم خير أمة أخرجت للناس كما جاء في محكم التنزيل، وما بعد الظلام إلا الصباح، والليل يتلوه النهار، والجهل يمحوه العلم.

وفي الختام، فإن احتفالنا بهذا اليوم العالمي للغة العربية دليل على تباشير الصباح، وإرهاصات النهضة، وفق الله الرجال الغيارى على هوية أمتهم، والذين سعوا السعي الحميد، وفعلوا الفعل الرشيد، ومكنوا العربية من انتزاع هذا اليوم المبارك في المحافل الدولية انتصاراً

٥٢- المصدر السابق: ٣/٥٢٣.

للعربية وأهلها، وإعزازاً لحُماتها وجنودها الذين لا تنام أعينهم عن خدمتها، وإعادة مجدها وهيبتها لعز العربية وأهل العربية.